الصِّدِّيقة

يُنزل الله فيها قرآنا يتلى

الصِّدِّيقةُ

يُنزِلُ الله فيها قُرآنا يُتْلَى

حين قال فيها أهلُ الإفكِ ما قالوا، فَبَرَّأها الله مِمَّا قالوا.

عَنْ عَائِشَةَ ـ رضي الله عنها ـ قَالَتْ: « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ، فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا مَعَهُ.

فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزَاةٍ غَزَاهَا، فَخَرَجَ سَهْمِي، فَخَرَجْتُ مَعَهُ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ، فَأَنَا أُحْمَلُ فِي هَوْدَجٍ [1] وَأُنْزَلُ فِيهِ.

فَسِرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ، وَقَفَلَ [2] وَدَنَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ، آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ.

فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى الرَّحْلِ، فَلَمَسْتُ صَدْرِي، فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزْعِ أَظْفَارَ [3] قَدِ انْقَطَعَ.

فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي، فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ..

فَأَقْبَلَ الَّذِينَ يَرْحَلُونَ لِي، فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي، فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ، وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ.

وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَثْقُلْنَ، وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ، وَإِنَّمَا

---

(١) الهودج: مركب من مراكب العرب، أُعِدَّ للنساء.

(٢) أي: رجع.

(٣) الجزع: الخرز. وظفار: اسم مدينة.

يَأْكُلْنَ الْعُلْقَةَ [1] مِنَ الطَّعَامِ.

فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ الْقَوْمُ حِينَ رَفَعُوهُ ثِقَلَ الْهَوْدَجِ، فَاحْتَمَلُوهُ.

وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فَبَعَثُوا الْجَمَلَ وَسَارُوا، فَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنْزِلَهُمْ وَلَيْسَ فِيهِ أَحَدٌ، فَأَمَمْتُ [2] مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ.

فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ غَلَبَتْنِي عَيْنَايَ فَنِمْتُ، وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ، فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ فَأَتَانِي، وَكَانَ يَرَانِي قَبْلَ الْحِجَابِ.

فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ، فَوَطِئَ يَدَهَا فَرَكِبْتُهَا، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ، حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ بَعْدَ مَا نَزَلُوا مُعَرِّسِينَ [3] فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ، فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ.

وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى الإِفْكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ، فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ، فَاشْتَكَيْتُ بِهَا شَهْرًا، يُفِيضُونَ مِنْ قَوْلِ أَصْحَابِ الإِفْكِ، وَيَرِيبُنِي فِي وَجَعِي أَنِّي لاَ أَرَى مِنَ النَّبِيِّ ﷺ اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَمْرَضُ، إِنَّمَا يَدْخُلُ فَيُسَلِّمُ، ثُمَّ يَقُولُ « كَيْفَ تِيكُمْ ؟ »

لاَ أَشْعُرُ بِشَيءٍ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى نَقَهْتُ.[4]

---

(١) العُلْقة: ما فيه بلغة من الطعام إلى وقت الغداة. وأصل العلقة شجر يبقى في الشتاء يعلق به الإبل أي تجتزىء به حتى يدرك الربيع.

(٢) أي: قصدتُ.

(٣) التعريس: نزول آخر الليل؛ للنوم والراحة.

(٤) أي: أفقتُ من مرضي.

فَخَرَجْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ الْمَنَاصِعِ مُتَبَرَّزُنَا، لاَ نَخْرُجُ إِلاَّ لَيْلاً إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الْكُنُفَ [1] قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا، وَأَمْرُنَا أَمْرُ الْعَرَبِ الأُوَلِ فِي الْبَرِّيَّةِ أَوْ فِي التَّنَزُّهِ.

فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ بِنْتُ أَبِي رُهْمٍ نَمْشِي، فَعَثَرَتْ فِي مِرْطِهَا[2]، فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ.

فَقُلْتُ لَهَا: بِئْسَ مَا قُلْتِ، أَتَسُبِّينَ رَجُلاً شَهِدَ بَدْرًا ؟!

فَقَالَتْ: يَا هَنْتَاهْ [3] أَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالُوا ؟!

فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الإِفْكِ، فَازْدَدْتُ مَرَضًا إِلَى مَرَضِي.

فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسَلَّمَ، فَقَالَ « كَيْفَ تِيكُمْ ».

فَقُلْتُ: ائْذَنْ لِي إِلَى أَبَوَيَّ. قَالَتْ: وَأَنَا حِينَئِذٍ أُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا، فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

فَأَتَيْتُ أَبَوَيَّ، فَقُلْتُ لأُمِّي: مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ ؟

فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّةُ، هَوِّنِي عَلَى نَفْسِكِ الشَّأْنَ، فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتِ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةٌ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا وَلَهَا ضَرَائِرُ، إِلاَّ أَكْثَرْنَ عَلَيْهَا.

فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ ! وَلَقَدْ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِهَذَا ؟!

قَالَتْ: فَبِتُّ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لاَ يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، وَلاَ أَكْتَحِلُ

---

(١) جمع "كنيف" وهو الساتر مطلقاً.

(٢) المرط: كل ثوب غير مخيط.

(٣) أي: يا هذه.

بِنَوْمٍ.

ثُمَّ أَصْبَحْتُ فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبَثَ [1] الْوَحْيُ؛ يَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ.

فَأَمَّا أُسَامَةُ فَأَشَارَ عَلَيْهِ بِالَّذِي يَعْلَمُ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْوُدِّ لَهُمْ.

فَقَالَ أُسَامَةُ: أَهْلُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلاَ نَعْلَمُ وَاللَّهِ إِلاَّ خَيْرًا.

وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَمْ يُضَيِّقِ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَسَلِ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ.

فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَرِيرَةَ [2] فَقَالَ لها: « يَا بَرِيرَةُ، هَلْ رَأَيْتِ فِيهَا شَيْئًا يَرِيبُكِ ؟ ».

فَقَالَتْ بَرِيرَةُ: لاَ. وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، إِنْ رَأَيْتُ مِنْهَا أَمْرًا أَغْمِصُهُ [3] عَلَيْهَا أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، تَنَامُ عَنِ الْعَجِينِ، فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ.

فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ يَوْمِهِ، فَاسْتَعْذَرَ [4] مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي ؟ فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلاَّ خَيْرًا، وَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلاً مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلاَّ

---

(١) أي: أبطأ نزوله.

(٢) هي: بريرة، مولاة عائشة بنت أبي بكر الصِّديق - رضي الله عنهم -.

(٣) أي: أعيبه.

(٤) أي: طلب المعذرة.

خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلاَّ مَعِي».

فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا وَاللَّهِ أَعْذِرُكَ مِنْهُ، إِنْ كَانَ مِنَ الأَوْسِ ضَرَبْنَا عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا فِيهِ أَمْرَكَ.

فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ - وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ، وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلاً صَالِحًا، وَلَكِنِ احْتَمَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ - فَقَالَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ، لاَ تَقْتُلُهُ وَلاَ تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ.

فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ الْحُضَيْرِ، فَقَالَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ، وَاللَّهِ لَنَقْتُلَنَّهُ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ.

فَثَارَ الْحَيَّانِ الأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ، حَتَّى هَمُّوا، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَنَزَلَ فَخَفَّضَهُمْ حَتَّى سَكَتُوا وَسَكَتَ.

وَبَكَيْتُ يَوْمِي لاَ يَرْقَأُ [1] لِي دَمْعٌ، وَلاَ أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، فَأَصْبَحَ عِنْدِي أَبَوَايَ، قَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا، حَتَّى أَظُنُّ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي.

قَالَتْ: فَبَيْنَا هُمَا جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي، إِذِ اسْتَأْذَنَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَأَذِنْتُ لَهَا، فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي.

فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجَلَسَ، وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مِنْ يَوْمِ قِيلَ فِيَّ مَا قِيلَ قَبْلَهَا، وَقَدْ مَكُثَ شَهْرًا لاَ يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي شَيْءٌ.

قَالَتْ: فَتَشَهَّدَ، ثُمَّ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا،

---

(١) أي: لا ينقطع.

فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ، ثُمَّ تَابَ، تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ».

فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَالَتَهُ قَلَصَ [1] دَمْعِي، حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً.

وَقُلْتُ لأَبِي: أَجِبْ عَنِّي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ.

قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فَقُلْتُ لأُمِّي: أَجِيبِي عَنِّي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِيمَا قَالَ.

قَالَتْ: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

قَالَتْ: وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، لاَ أَقْرَأُ كَثِيرًا مِنَ الْقُرْآنِ، فَقُلْتُ: إِنِّي - وَاللَّهِ - لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ سَمِعْتُمْ مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ، وَوَقَرَ فِي أَنْفُسِكُمْ، وَصَدَّقْتُمْ بِهِ.

وَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيئَةٌ - وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنِّي لَبَرِيئَةٌ - لاَ تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ، وَلَئِنِ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ - وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ - لَتُصَدِّقُنِّي، وَاللَّهِ مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلاً إِلاَّ أَبَا يُوسُفَ، إِذْ قَالَ: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾. [2]

ثُمَّ تَحَوَّلْتُ عَلَى فِرَاشِي، وَأَنَا أَرْجُو أَنْ يُبَرِّئَنِي اللَّهُ.

وَلَكِنْ وَاللَّهِ مَا ظَنَنْتُ أَنْ يُنْزِلَ فِي شَأْنِي وَحْيًا، وَلأَنَا أَحْقَرُ فِي

---

(١) أي: ارتفع.

(٢) يوسف: ١٨.

نَفْسِي مِنْ أَنْ يُتَكَلَّمَ بِالْقُرْآنِ فِي أَمْرِي.

وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللَّهُ.

فَوَاللَّهِ مَا رَامَ [1] مَجْلِسَهُ، وَلاَ خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ، حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبُرَحَاءِ [2] حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ [3] مِنْهُ مِثْلُ الْجُمَانِ [4] مِنَ الْعَرَقِ فِي يَوْمٍ شَاتٍ.

فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ لِي: « يَا عَائِشَةُ، احْمَدِي اللَّهَ؛ فَقَدْ بَرَّأَكِ اللَّهُ ».

فَقَالَتْ لِي أُمِّي: قُومِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فَقُلْتُ: لاَ وَاللَّهِ، لاَ أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلاَ أَحْمَدُ إِلاَّ اللَّهَ.

فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ..... الآيات ﴾. [5]

فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ـ رضي الله عنه ـ وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ؛ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ ـ: وَاللَّهِ لاَ أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ مَا قَالَ لِعَائِشَةَ.

فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ

---

(١) أي: مَا فَارَقَ.

(٢) هي شدة الحُمَّى، وقيل: شدة الكَرْب، وقيل: شدة الحَرّ.

(٣) أي: لينصبّ.

(٤) الجُمان: الدُّر. شُبِّهت قطراتُ عَرَقِه ﷺ بحبَّاب اللؤلؤ في الصَّفاء والحُسن.

(٥) النور: ١١ـ ٢٠.

﴿أُولِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.[1]

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى، وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي. فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ الَّذِي كَانَ يُجْرِي عَلَيْهِ »

إن الذين جاءوا بالإفك لم يكونوا يقصدون رَمْيَ عائشة وحدها، وإنما يقصدون الرسالةَ والرسول.

يقصدون الكيدَ للإسلام، والأذى لرسول الله ﷺ.

وهم قد ظنوا أنهم بذلك قد اختاروا مَقْتلاً، يُبطلون به ما جاء من الحق، وقد غاب عنهم أن الله حافظُ دينه، وأنه بما يعملون مُحِيط.

لقد ظلّت المدينةُ شهراً كاملاً ترجُف بما تَقَوَّلوه وأشاعوه.

والطاهرةُ الطيِّبةُ المُبَرَّأةُ لا يَرْقَأ لها دمع، ولا تكتحل بنوم، وهي تُرْمى في أعزِّ ما تملك من شَرَفٍ وطُهْرٍ، وحُبٍّ لرسول الله ووفاء.

ولقد شاء الله أن يتلبث الوحيُ شهراً كاملاً..

وهي تلاقي ما تُلاقيه تقولُ لأُمِّها - في حُزن وأسى -: « سبحان الله! وقد تحدث الناس بهذا؟ وقد علم به أبي؟ ».

فتجيبها أُمُّها: « نعم ».

« ورسول الله؟ »

فتجيبها أُمُّها: « نعم » كذلك.

---

(١) النور: ٢٢.

الأب والأُم ورسولُ الله ﷺ جميعاً قد علموا.

وأولئك الذين يُرجَى منهم أن يَرُدوا عنها سهامَ الإفكِ والكيد، فلا يستطيعون، وهي فتاةٌ صغيرة في نحو السادسة عشر من عمرها.

وحين قال لها الرسول ﷺ: « إنْ كنتِ أَلْمَمْتِ بذنب فاستغفري الله ».

استجارت بأبيها وقالت: « أجب عني رسول الله فيما قال »

فيقول: « والله، ما أدري ما أقول لرسول الله ».

فقالت لأُمِّها: « أجيبي عني رسول الله فيما قال »

فتقول الأُمُّ: « والله، ما أدري ما أقول لرسول الله ».

والرسول ﷺ لا يستطيع أن يقول إلاَّ بما يُوحَى إليه.

فآوتْ إلى ربِّها، وقالت ما قاله يعقوب عليه السلام: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

إنَّ الاحتمال الذي كانت عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ تتطلع إليه لإظهار براءتها هو أن يرى الرسول ﷺ في شأنها رؤيا، أو يُخبر بخبر، أمَّا أن ينزل في شأنها قرآنٌ يُتلى، يُقرأ به في المساجد، ويُصلَّى به، فذلك ما لم تكن تَظُنُّه.

لذلك عندما أنزل الله في شأنها قرآنا، لَهَجَتْ بالحمد لربِّها، ولم تنطق بحمدٍ لأحدٍ سواه.

والرَّسُول ﷺ يُقَدِّرُ ذلك منها غايةَ التقدير، لا لأنَّها وضعت الأمورَ في موضعها فحسب، وهي تحمد ربَّها على براءتها، بل لأنَّ الحمد لله

وحده هو الجدير بأن يكون في هذا المقام.

وهي بحمدها لله وحده تفي - كُلَّ الوفاء - لرسول الله، ولا يغيب عنها أنه الْمُوحَى إليه بخبر السماء، وأن في إعلان براءتها من الله إزهاقاً لكل باطل دُبِّرَ لدين الله في الخفاء.

إن الآيات التي نزلت في سورة "النور" لم تكن تحقيقاً لطُهْر الصِّديقة وبراءتها فحسب، بل كانت بياناً وتشريعاً، وصيانةً للأعراض، وردعاً لكل تَقوُّلٍ بباطل، أو سَعْيٍ لفساد.

فكانت الصِّديقةُ مباركةً في محنتها، مباركةً في براءتها.

والقرآن يُتْلَى إلى يوم الدِّين؛ ليكون تبصرةً وذكرى للمؤمنين، وإنذاراً وردعاً للظالمين للمفسدين.

وكم كان لآل أبي بكر في الإسلام من بركات.

روى مسلمٌ، عَنْ عَائِشَةَ - رضي الله عنها - أَنَّهَا قَالَتْ:

« خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْبَيْدَاءِ - أَوْ بِذَاتِ الْجَيْشِ - انْقَطَعَ عِقْدٌ لِي، فَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْتِمَاسِهِ، وَأَقَامَ النَّاسُ مَعَهُ، وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ، وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ.

فَأَتَى النَّاسُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ، فَقَالُوا: أَلاَ تَرَى إِلَى مَا صَنَعَتْ عَائِشَةُ، أَقَامَتْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبِالنَّاسِ مَعَهُ، وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ ؟!

فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاضِعٌ رَأْسَهُ عَلَى فَخِذِي قَدْ نَامَ

فَقَالَ: حَبَسْتِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَالنَّاسَ وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ، وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ !

قَالَتْ: فَعَاتَبَنِي أَبُو بَكْرٍ، وَقَالَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ، وَجَعَلَ يَطْعُنُ

بِيَدِهِ فِي خَاصِرَتِي [1] فَلاَ يَمْنَعُنِي مِنَ التَّحَرُّكِ إِلاَّ مَكَانُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى فَخِذِي.

فَنَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَصْبَحَ عَلَى غَيْرِ مَاءٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ التَّيَمُّمِ [2] فَتَيَمَّمُوا.

فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ الْحُضَيْرِ - وَهُوَ أَحَدُ النُّقَبَاءِ -: « مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ ». [3]

إنَّ بُيُوتَ النَّبيِّ قد تربَّتْ كُلُّها على مأدبة القرآن، وعملت بوحيه.

ومَن تدبَّر أمرَ زواجه بنسائه، وَعَرَفَ حياتهُنَّ ومَا كُنَّ عليه، عَرَفَ أنَّ للوحي في أمرهنَّ شأناً - أي شأن - وهو يذكر ما يُتْلَى في بيوتهنَّ من آيات الله والحكمة.

تَحَادَثَتْ يوماً أمّ المؤمنين عائشة وزينبُ - رضي الله عنهما - وتفاخرتا فَبِمَ تفاخرتا ؟

قالت زينبُ - رضي الله عنها -: « أنا التي زوَّجني ربي » وهي تعني قولَ الله عَزَّ وَجَلَ: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ..... الآية ﴾. [4]

فقالت عائشةُ - رضي الله عنها -: « وأنا التي بَرَّأني ربي، نزلت براءتي

---

(١) الخَصْرُ: وسط الإنسان.

(٢) هي قوله تعالى: (وَإِنْ كُنتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا) (النساء:٤٣)

(٣) مسلم: كتاب الحيض.

(4) الأحزاب: ٣٧.

من السماء في القرآن ».

فسلّمت لها زينبُ، ثم قالت: « كيف قلْتِ حين ركبتِ راحلةَ صفوان بن المعطل ؟ »

قالت عائشة: « قلتُ: حسبي الله ونِعْمَ الوكيل ».

قالت زينبُ: قُلتِ كلمةَ المؤمنين ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾.[1]

هل رأيتَ في الحوار شيئا بعيداً عن القرآن وفِقه القرآن ؟

وهل رأيتَ فيما كان بين عائشة وزينب إلاّ ما تطيب به النفسُ، ويعظُم الوُد، وينشرح الصدر، وكلتاهما تذكر نعمةَ الله عليها، وتسند الفضل لربِّها، لا لأحدٍ سواه ؟

إن القرآن الكريم في حياتهنَّ حياةٌ، أي حياة.

وَهُنَّ يقرأنه، ويرونه عملاً وخُلُقاً في رسول الله، حيث يتلقّاه وحياً نازلاً من السماء.

إن زوجات الرسول ﷺ يَرَيْنَ الرسولَ في القرآن، وَيَرَيْنَ القرآنَ في رسول الله.

---

(١) آل عمران: ١٧٣، ١٧٤.

يَرَيْنَهُ في خاصَّةِ نفسه، وفي علاقته بغيره.

يَرَيْنَهُ في حَرْبِهِ وسِلْمِهِ، وفيمن ربَّاهم من صَحْبِه.

كما يُرى أثرُ القرآن فيمن آمن به واهتدى بهُداه.

إنه القرآن، حِصْنٌ حصين للرسالة والرسول. به صارت رسالةُ الرسل ـ جميعاً ـ مصونة من كيد الكائدين، وتحريف المبطلين.

وبه يَعْرِفُ الناس ـ جميعاً ـ كيف يقتدون بهُداهم إلى يوم الدِّين.

سبحانَ مَنْ حَفِظَهُ وَحَفِظَ به الرسالةَ إلى يوم الدِّين.

***